كلمة

للحقيقة فإننا لسنا بصدد «محاكمة» واحدة، بل نحن بصدد عدة محاكمات، جرت فى أوقات متباينة، وفى أوساط مختلفة، وبمعرفة أشخاص لايجمع بينهم جامع واحد.. وقد دارت تلك المحاكمات – جميعها – على أثر قيام كاتبنا الكبير بنشر روايته «أولاد حارتنا» مسلسلة فى جريدة الأهرام، فما إن أوشكت الرواية على أن تبلغ نهايتها حتى ثارت بشأنها الأقاويل، وجرت التفسيرات والتأويلات، ووصفت الرواية بأسوأ الأوصاف التى تمس العقيدة، كما تمس صادق الإيمان.

ولا نود أن نبدى رأيا – منذ الآن – بشأن تلك المحاكمات، ومدى ما اتصفت به من بعد عن تحرى العدل، أو قصد الإنصاف، لأن ما هدفت إليه لم يكن سوى الإساءة إلى كاتب عُرف عنه الإبداع، ومن تشويه لصورة فنان كان مما شرف مصر انتسابه إليها.. فكل تلك الأمور مؤجلة إلى ما بعد عرض «عناصر الدعوى ووقائع الاتهام» فالحكم العادل لا يصح أن يصدر إلا بعد درس للموضوع من جميع نواحيه وبعد الإحاطة بـ «القضية» بكل تفاصيلها.

والحكاية أن «نجيب محفوظ» وعقب إنجازه لثلاثيته الشهيرة: بين القصرين – قصر الشوق – السكرية، توقّف لفترة عن تقديم أعمال روائية جديدة، فلما دُعى فى عام ١٩٥٩م إلى نشر أعماله وإبداعاته فى الأهرام، قدم للنشر روايته «أولاد حارتنا» التى وجدت فى الغالب إقبالا من القراء، لنشرها مسلسلة، ولما تحمله من عناصر التشويق.

وكان النشر بهذه الصورة مما يحجب عن القارىء الفكرة الكاملة التى تقوم عليها الرواية، ويجعل من المتعذر، إدراك المرامى التى يهدف إليها المؤلف، ومن هنا فلم يبدأ الحديث عن الرواية، والتنبه إلى مراميها إلا بعد أن أوشكت أن تبلغ غايتها، ويصل بها مؤلفها إلى النهاية التى أرادها لها.

وعلى ذلك فعندما تنبَّه البعض إلى ما تنطوى عليه أعماق تلك الرواية من معان ومن دلالات، ثارت بشأنها الأقاويل، وقامت ضدها الهجمات تلو الهجمات، بل وأجريت لها العديد من المحاكمات التى استمرت لفترة تقارب النصف قرن قضاها الكاتب وهو محروم من أن يرى روايته تنشرها دار نشر مصرية وتعلن عنها، وتعرضها فى مكتباتها، وتتيح للقراء أن يتبادلوها.. ولم يحدث ذلك إلا بعد انتقال المؤلف إلى جوار ربه الكريم..!!

وقد حوكمت الرواية أول ما حوكمت على نطاق السلطة؛ وفى غضون ذلك لم تعدم الرواية البعض ممن يتطوع بالكتابة – أو بالحديث – عنها فلا يدخر فى وسعه قدرا من أوصاف سيئة قد تصل إلى التكفير إلا ووصم الرواية بها – بل وربما.. نسب الكفر إلى المؤلف نفسه..!

ومن ناحية أخرى فقد تطوَّع عدد من النقاد مسايرة لهؤلاء المتسرعين؛ فكتبوا عن الرواية بما يسىء إليها وإلى مؤلفها.. وإن كان هناك عدد آخر من النقاد قد تصدُّوا لتلك الحملة، وحرصوا على أن يدافعوا عن الرواية بتفسيرها التفسير الذى يرون أنه الأقرب إلى الصواب..!!

وإذا كانت هاتان المحاكمتان قد جرتا على مرأى ومسمع من الجميع – فقد كانت هناك محاكمة أخرى تجرى فى الظلام، بدون سماع أقوال أو مناقشة اتهام.. ليصدر عنها الحكم فى سرية كاملة، ويعهد بتنفيذه إلى نفر من الشباب أوكلت إليه مهمة تنفيذ حكم الإعدام فى مؤلف الرواية.. غير أن عملية التنفيذ التى تمت بتاريخ ١٤ من أكتوبر ١٩٩٤م لم يكتب لها النجاح الكامل. وإن كانت قد أسفرت عن إصابة المؤلف بإصابات جسيمة ظلَّ يعانى من آثارها إلى أن وافته المنية.

وقد رُوِّع المجتمع عندما أذيع عليه خبر ذلك التعدِّى الآثم الذى كان تنفيذا لحكم صدر فى الظلام.. فظل لمدة يتابع ما يجرى من محاكمات للمعتدين..!

ولم يكتف من اتخذوا لأنفسهم موقف العداء من الرواية – بما يستتبعه موقفهم من تكفير للمؤلف – بذلك كله، بل رأوْا أن يطرقوا باب «القضاء الجنائى» متهمين الكاتب بالتعدِّى على الأديان بأن نسب إلى الذات الإلهية اسما من غير أسمائه – سبحانه وتعالى – مطالبين بمعاقبته بالمواد المنطبقة عليه من قانون العقوبات والتى تصل عقوباتها إلى الحبس والغرامة..!!

وهكذا، فقد أجريت محاكمات عديدة للرواية ولمؤلفها: بعضها جرى فى العلن، وبعضها جرى فى الظلام، كما صدر أكثر من حكم بالإدانة، بل وبالتكفير فى بعض الأحيان ممَّا ظلت معه الرواية مطاردة، وممنوعا نشرها، دون أن يكون معلوما بيقين الجهة التى أصدرت قرار المنع.. وكما كان قرار المنع مجهول المصدر، أو على الأقل هناك شك فى أن الجهة المنسوب إليها أنها أصدرته ما زالت تصر عليه ومتمسكة به.. فقد أتيح للرواية مؤخرا أن تخرج إلى النور، وأن يتداولها النقاد بالنقد فى حرية وصراحة تامتين..!!

ومؤلف الكتاب الذى بين أيديكم وإن كان قد شارك فى متابعة هذه القضية وتلك المحاكمات ضمن من تابعوها من جماهير المصريين.. إلا أنه كان له دور عملى فى طورها الأخير إذ تولّى الدفاع – أمام محكمة جنايات – عن «نجيب محفوظ» وكان حرصه على أن يثبت سلامة موقفه، وطهارة قصده، وسموّ مراميه، وبراءته من كل ما هو منسوب إليه – بالغا أقصى ذروته – ولكن على نحو موضوعى برىء من كل انفعال.

ومن هنا كانت فكرة هذا الكتاب: محاكمة «نجيب محفوظ» – بمحاكمة «أولاد حارتنا» – ليضم كل مراحل تلك المحاكمة، ما كان منها فى العلن، وما كان منها فى الظلام، ثم ما جرى منها فى أروقة السلطة، أو على صفحات الجرائد، أو فى بطون الكتب والمؤلفات... ما قيل منها على ألسنة رجال الدين أو من يدّعون أنهم من رجال الدين، أو ما جرى نشره بأقلام كبار الكتاب – أو بأقلام من هم دون الكبار من الكتاب.. ثم ما جرى أخيرا فى ساحة المحكمة ورددته جنباتها من مرافعات عديدة سواء جاءت اتهاما «لنجيب محفوظ» أو دفاعا عنه..!!

كل هذه الصور والأحداث والأحاديث نطمع أن نرويها فى أمانة، ونسجّلها بكل تفاصيلها، لما لذلك من أهمية كبيرة فضلا عن كونه تسجيلا لما كان لها من صدّى بالغ، وبخاصة أن الأمر كان يتصل بعمل فنّى – فى المقام الأول – ليس المقصود منه بحال من الأحوال التحدث عن الأديان أو التعرض للعقائد، أو استعراض قصص الأنبياء.. كان مجرد عمل روائى يستعرض الحياة المصرية متمثلة فى إحدى الحارات على أساس أن الحارة هى نموذج لتلك الحياة حيث تبرز سماتها الأصيلة، وأسرارها الدفينة، وطباعها المتأصلة، وحيث تتعقد مشاكلها بحثا عن لقمة العيش حينا، وصراعا بين القوى فى أحيان أخرى، ولكنها فى جميع الأحوال تؤكد أنها ملحمة البحث عن الحق والعدل والمساواة..!

* * *

على أن ذلك كله يستلزم بالطبع أن نبتدىء بعرض الرواية كما كتبها مؤلفها، معرضين عمّا قيل بشأنها من تفسيرات وتأويلات، حيث إن مثل تلك المقولات لا يتأتى فهمها – وتقديرها – إلا بعد الوقوف على ما قاله المؤلف أولا. لأن ما قاله بالفعل هو الأساس والمرتكز، وكل ما قيل على ألسنة الغير من نقد، أو فهم، أو تقرير، أو اتهام – إنما هو اجتهاد – قام به أصحاب تلك المقولات التى يريد صاحب كل مقولة منها أن يظهر أنه هو وحده صاحب

الفراســة النافذة الذى أمكنه أن يصل إلى الحقيقة، ويدرك ما قصد إليه المؤلف بالفعل..!

ولسنا فى حاجة إلى أن نؤكد ما هو مسلم به من أن كل قول – أو تفسير – فإنه كما يحتمل الصواب، فإنه يحتمل أيضا الخطأ.. وبنفس النسبة وربما بنسبة أكبر..!

وهكذا، فإننا سنمضى بعد عرض – واستعراض – الرواية – كما كتبها صاحبها – إلى الحديث عن كل ما تعلق بها من تفسيرات وتأويلات أدّت إلى تعرض الرواية – ومؤلفها – لمحاكمــات متوالية، بعضها جرى كما ذكرنا فى العلانية وبعضها جرى فى الخفاء.. كما أن منها ما تولاّه أشــخاص لهم دوافع ظاهرة، ومنها ما تولاه أشــخاص مغرضون لا تعرف طبيعة هويتهم ولا حقيقة مقاصدهم.. ومنها أخيرا ما تداولته ساحة محكمة الجنايات..!

وكما ذكرنا – فإننا نعيد القول بأن هدفنا هو جلاء الحقيقة، وسبيلنا إلى ذلك هو معاودة دراســة الأحداث، وبســط الوقائع، وتحليل كل ما أحاط بالرواية من ظروف وملابسات – وهو جهد كبير وثقيل نسأل الله أن يسدد خطانا فيما نبذله بصدده، فهو الموفّق وهو الهادى إلى كل ما فيه الخير.

وعلى الله قصد السبيل

د. أحمد السيد عوضين

تحريرا فى ٣٠ / ٤ / ٢٠١١ م

* * *

خطة.. ومنهاج

سوف نمضى فى هذه الصفحات طبقا للخطة التى وضعناها، وباتباع المنهاج الذى رسمناه متخذين من الوصول إلى الحقيقة وجلائها هدفا أساسيا لا نعدل به هدفا آخر، ملتزمين معيارا لا نحيد عنه هو معيار الحيدة والإنصاف، معتبرين أن مهمتنا الأساسية على مدار هذه الصفحات هى الرصد للأحداث بكل دقة وموضوعية، والتعبير عن الآراء بكل صدق وأمانة، ولكل صاحب رأى عندنا احترامه وتقديره، وإن كان ذلك لا يحول دون أن نكشف عن عثراته وانحرافاته – من وجهة نظرنا التى نحرص على أن نتحرى بشأنها وجه الحق وحده – وإن كنا لا نعفى أنفسنا من الزلل فى بعض الأحيان – كما أننا نلزم أنفسنا فى ذات الوقت بأن نبرز وجهات النظر التى أصابت الحقيقة، وتحرت فى نقدها وحديثها شرف الكلمة وسلامة المعيار.

وعلى ذلك فسوف يمضى بنا الحديث على النحو التالى:

١ – سيكون حديثنا – فى «الفصل الأول» – عن الرواية والراوى... حيث نعرض قصة الرواية، وما صادفها – أو صادفته – من عقبات وما ثار حولها من مقولات، وما اتخذ بشأنها من إجراءات جعلت الناس لاتدرك الحقيقة بشأنها لزمن طويل.

حتى إذا ما كشفنا ذلك كان علينا أن نقدم «الراوى» – ولانقول المؤلف – فهذا هو الوصف الذى اختاره مؤلف تلك الرواية. صحيح أنه قد كتب عن «نجيب محفوظ» الكثير، فلم يعد ثمة جديد يمكن لصاحب قلم مثلى أن يضيفه. لكن ليس من شك فى أن الحديث عن الراوى يبدو وثيق الصلة بالحديث عن الرواية، ومن يدرى فكثيرا ما يجهل المرء قيمة ما يقدمه.!

٢ – ونخصص «الفصل الثانى» لنقدم مضمون الرواية – أحداثا، وأشخاصا، وأفكارا فى صفحات معدودة، وقد وجدنا أن تقديم هذا المضمون – ولانقول الملخص أو الموجز – هو أمر هام وضرورى حتى بالنسبة لمن طالع النص الأصلى أكثر من مرة، لأننا فى حديثنا عمّا تعرضت له الرواية من محاكمة – بل محاكمات – سوف نضطر إلى مراجعة كل أحداث الرواية وكل وقائعها، وكل أشخاصها، وما حمله كل شخص منهم من أفكار، وما عبر

عنه من آراء، وما هدف إلى تحقيقه من رسالات، ولايتسنى ذلك لمن يقدم ملخصا موجزا يقتصر على الأحداث الكبرى والشخصيات الرئيسية دون ما اهتمام بتطوّر الأحداث، وبنمو الأشخاص، وبتأثير الظروف. فلكل ذلك دوره وأهميته وهو ما انعكس فى حرصنا على تقديم مضمون متكامل للرواية.

٣ – وسوف يسلمنا ذلك إلى «الفصل الثالث» والذى يدور حول تصرف السلطة الحكومية حيال الرواية فى أول الأمر ومدى ما كان لهذا التصرف من انعكاس بشأن وضع «الرواية» فى الداخل، وعدم وصولها إلى أيدى جمهور القراء فى الداخل، وغيابها بالتالى عن جمهور أبناء «البلد» الذين يتابعون فى حرص كل ما يقدمه «نجيب محفوظ» من إبداعات.. وقد سار معها فى نفس التيار – الأزهر إلى حد ما..

٤ – على أنه مع تقدم الأحداث، وحصول «نجيب محفوظ» على جائزة نوبل العالمية نشط كثيرون لتناول أعماله بصفة عامة، ولعرض رواية «أولاد حارتنا» والتعرض لها بصفة خاصة.. وكان هذا التناول من خلال أكثر من وجهة نظر، كانت كل منها تخالف، بل قد تناقض سواها.

٥ – تمثلت وجهة النظر الأولى فى تناول عدد من رجال الدين، وخطباء المنابر لتلك الرواية، وكان منهج معظمهم، هو تفسير رموز الرواية تفسيرا مرجعه سير الآنبياء وتوالى الأديان. ومدى توافق الأحداث وصحيح «الرواية الدينية» كما هى ثابتة فى الكتب السماوية وأخصها القرآن الكريم، ومن هنا جاء التقييم للرواية فى الكثير مما ورد على ألسنة خطباء المنابر ورجال الدين قاسيا مؤلما.. ونتحاشى أن نصفه بالإجحاف. ولهؤلاء سوف نخصص «الفصل الرابع» الذى يتحدث عما قيل من فوق المنابر أو بأقلام عدد من علماء الدين.

٦ – على أنه كانت هناك محاكمة أخرى تجرى للرواية فى الخفاء، وكانت تحكمها الإشاعات التى تناولت الرواية بما يسئ إليها وإلى كاتبها شر إساءة، وبما يوغر الصدور على الرواية والراوى حتى يدفع بعضهم إلى التخطيط لاغتيال «نجيب محفوظ»، وإن كانت محاولته باءت بالفشل، إلا أنها أحدثت صدى مدويا من ناحية، كما أصابت الكاتب بإصابات خطيرة خلفت عنده بعض نواحى العجز التى ظل يعانى منها حتى وفاته – وهذا هو موضوع «الفصل الخامس».

٧ – أما «الفصل السادس» فعنوانه: «محاكمة... قُضاتُها كتاب» وقد صبغت كتاباتهم – وبالتالى أحكامهم – بصبغات مختلفة تراوحت بين صبغة دينية ضيقة الأفق، وأخرى تأخذ من الإسلام سماحته وسعة أفقه.. وبين صبغة أدبية نقدية تعرض للرواية باعتبارها عملا فنيا بحتا.. ومن ثم فالعبرة هى بمقدار تفوقه الفنى، وعمقه الإبداعى..

٨ – على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى ساحات القضاء حيث أقيمت دعوى جنائية أمام محكمة الجنايات وكان المتهم فيها «نجيب محفوظ» والتهمه: ازدراء الأديان.. واستمر نظر الدعوى طويلا، وتداولت بالجلسات إلى أن قضى فيها بعد عدة جلسات بعدم قبول الدعوى الجنائية ورفض الدعوى المدنية.

٩ – وبعد استعراض كل تلك المحاكمات التى جرت من فوق المنابر حينا، وعلى صفحات الصحف والجرائد والمؤلفات المطولة فى أحيان أخرى، أو فى الخفاء ثم إصدار حكم والشروع فى تنفيذه على الفور.. ثم تعرض الدعوى على القضاء وتتداول فى المحاكم.. بعد ذلك كله يكون السؤال الذى يفرض نفسه هو:

وما هو وجه الحق فى ذلك كله؟ وعم تكشف كل هذه الأحداث والأقوال والآراء التى أذيعت ونشرت فى كل الأرجاء؟ وما هى الكلمة السواء التى نخلص إليها، ونقدمها بأسانيدها وأدلتها وبراهينها، وسيكون ذلك هو موضوع الفصل الأخير من هذه الدراسة.. وفيه «فصل الخطاب»

والواقع إننا لانرجو من وراء ذلك كله إلا إعلاء كلمة الحق – والله ولى التوفيق: وهو الهادى إلى سواء السبيل.

* * *